ليلى مبروك

يوم الميعاد



المختار الإسلامى
أسسها حسين عاشور عام ١٩٧٢
القاهرة : ١٥ شارع شهاب - المهندسين
ص ب ١٧٠٧ - القاهرة - رمز بريدى ١١٥١١ - تليفون وفاكس ٣٤٩٠٤١١

بسم الله الرحمن الرحيم

(أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين)[1] .

صدق الله العظيم

---

١ - التوبة - ١٠٩

على شفا جرف : على حرف بئر لم تبن بالحجارة

هار : هائر متصدع أو متهدم

فانها ربه : فسقط البناء بالباقى

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

(ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب) [1]

أتى رجل إبراهيم بن أدهم رضى الله تعالى عنه فقال :

يا أبا إسحاق ! إنى مسرف على نفسى ، فاعرض على مايكون لها زاجراً ومستنقذاً ! .

فقال إبراهيم : إن قبلت خمس خصال ، وقدرت عليها لم تضرك المعصية .

قال : هات يا أبا إسحاق ! .

قال : أما الأولى : فإذا أردت أن تعصى الله تعالى ، فلا تأكل رزقه ! .

قال : فمن أين آكل ؟ ! وكل مافى الأرض رزقه ؟ !

قال : ياهذا ! أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتعصيه ؟ !

قال : لا ، هات الثانية ! .

قال : وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده ؟ !

قال : هذه أعظم ! فأين أسكن ! .

قال : يا هذا ! أفيحسن بك أن تأكل رزقه ، وتسكن بلاده ، وتعصيه ؟ .

قال : لا ، هات الثالثة ! .

قال : وإذا أردت أن تعصيه ، وأنت تأكل رزقه ، وتسكن بلاده ، فانظر موضعاً لا يراك فيه فاعصه فيه ؟ ! .

قال : يا إبراهيم ! ماهذا ؟ وهو يطلع على مافى السرائر ؟ !

قال : يا هذا ! أفيحسن بك أن تأكل رزقه ، وتسكن بلاده ، وتعصيه وهو يراك ، ويعلم ماتجاهر به ؟ ! .

قال : لا ، هات الرابعة ! .

---

(١) البقرة - جزء من آية ٢٦٩ .

قال : فإذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك ، فقل له : أخرني حتى أتوب توبة نصوحاً ، وأعمل لله صالحاً ! .

قال : لا يقبل منى ؟

قال : ياهذا ! فأنت إذاً لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب ، وتعلم أنه إذا جاءك لم يكن له تأخير ، فكيف ترجو وجه الخلاص ؟

قال : هات الخامسة ! .

قال : إذا جاءك الزبانية يوم القيامة ، ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم ؟ ! .

قال : إنهم لا يدعونى ، ولا يقبلون منى ؟ !

قال : فكيف ترجو النجاة إذن ؟ ! .

قال : يا إبراهيم ! حسبى ، حسبى ! أنا أستغفر الله وأتوب إليه .

فكان لتوبته وفياً ، فلزم العبادة ، واجتنب المعاصى حتى فارق الدنيا .

الإنسان ابن الأرض

(منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) [1]

فى الأرض خلقنا .. منها نتغذى .. عليها نعيش .. فيها نموت .. ومنها نعود وعليها تتساءل أيها الإنسان .. دوماً نتساءل : كيف نخلق من جديد بأجسادنا نفسها التى تحللت فى الأرض واختلطت بمخلوقات أخرى ؟

كيف نبعث يوم القيامة بذواتنا ؟

كيف يتم حساب كافة خلق الله فى آن واحد ؟

كيف يمكننا جميعاً مشاهدة حساب كل فرد على حدة ؟

كيف يمكن الهيمنة على ذلك الموقف الرهيب ؟

كيف تستطيع تحمل قوة نور ملكوت الله ولم يستطع موسى عليه السلام ؟

وكيف .. كفاك كيف أخى القارئ .. دعنى أتكلم :

إن قدرتك البشرية محدودة .. لكن قدرة الله بلا قيود ولا حدود .. فلا تفكر كثيراً .. لا تعمل عقلك فى مثل هذه الأمور لأن قوة الله فوق العقول .. كان الله منذ الأزل ولم يكن الإنسان .. لم يكن لنا وجود فأوجدنا المبدئ جل جلاله .. وسيعيدنا تارة أخرى كما وعدنا سبحانه وتعالى :

(...كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) [2]

بالمفهوم البشرى : إن إعادة خلق شئ كان موجوداً أسهل من خلقه من عدم .. أما عند الله فلا يصعب شئ .

خلاصة القول : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) [3]

بكن كانت الحياة .. وبكن سوف تكون .

كان علم الله منذ الأزل .. لكنه سبحانه وتعالى لم يكشف عما يشاء من علمه

---

(١) طه - ٥٥

(٢) الأنبياء - جزء من آية ١٠٤ .

(٣) يس - ٨٢.

إلا وقتما يشاء .. ولا يزال لعلم الله أسرار لم تنكشف بعد ! !

كانت البشرية كلها فى ظهر آدم منذ خلق .. كان الإنسان خلية حية دقيقة فى ظهر أبيه لا ترى بالعين المجردة ..

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ...)

خلق الله آدم من طين ثم جعل نسله من نطفة .. كل نطفة تمثل حياة إنسان وتحمل فى طياتها صفاته وأسرار حياته .. كانت بداية تكوين الجنين عجب الذنب .. وعجب الذنب هو ما يوجد بآخر فقرة فى العمود الفقرى بالظهر والتى تسمى العصعص .. فقد أوضحت الأحاديث الشريفة أن جسم الإنسان يتركب منه عند تكوين الجنين .. وعندما يموت يتحلل الجسد فى التراب .. يتحلل كله ولا يبقى منه سوى عجب الذنب حيث يعاد تركيب الجسد منه مرة أخرى يوم البعث بإذن الله .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث متعددة فى هذا الصدد منها ما أخرجه أبو داود فى سننه عن أبى هريرة بلفظ :

(كل ابن آدم تأكل الأرض إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب) [٢]

وأوضح علم الأجنة الحديث أن عجب الذنب هو الشريط الأولى (Primitive Streak).. وإثر ظهور هذا الشريط يتكون الجنين بكافة طبقاته وخاصة الجهاز العصبى .. ثم يندثر الشريط ولا يبقى إلا أثر فيما يسمى عظم العصعصى (عجب الذنب) .. إن أحاديث عجب الذنب من معجزاته صلى الله عليه وسلم .. إن ظهور عجب الذنب شرط أساسى لتخلق الجنين ..

وقد حرم الطب إجراء التجارب على الأجنة بمجرد ظهور عجب الذنب باعتباره بداية تكون الجنين .

---

(١) الاعراف : جزء من آية ١٧٢ .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ باللفظ السابق ، وأخرجه الإمام النسائى وابن ماجه والإمام أحمد وابن حيان .

أيها الطبيب العالم (هل هناك علاقة واضحة مباشرة بين كل من : النطفة ، عجب الذنب ، ظهر ابن آدم .. وبين أخذ ذرية آدم من ظهور بنى آدم بالمسح على ظهر آدم عند بدء الخليفة ؟ !

لا أزال أكرر وأقول : إنه لا يزال لعلم الله أسرار لم تنكشف بعد ! بل ومنها ما لن يتكشف حتى قيام الساعة !

وحينما يولد الإنسان .. يولد وقد ورث من أمه (أى الأرض) كل العناصر الموجودة فيها .. يتكون الجسد البشرى من ستة عشر عنصراً هى نفسها عناصر الأرض .. أولها وأعلاها نسبة الكربون والأكسجين وآخرها المنجنيز .. ويعيش على سطح الأرض.. يعيش تحت رعايتها وبجاذبيتها .. فيتغذى على النباتات والحيوانات التى تتغذى منها .. يشرب ماءها ويتنفس هواءها .. ثم يموت .. يلقى فى أحضانها .. فتكون لجسده مهداً .. تصير له لحداً .. ويذوب فيها ،، يتفتت .. يتحلل ويعود إلى أصله .. يعود ترابا .. يصير ترابا فى الأرض التى يتغذى منها إنسان آخر .. تدور الدورة نفسها .. تظل تدور حتى قيام الساعة .. ويصدر أمر المبدئ المعيد جل جلاله : كن ... فيكون .

يكون بذاته وبتكوينه الذى كان فى الدنيا .. وبالرغم من وحدة تكوين البشر إلا أنه لا يوجد إنسان يشبه الآخر فى تفاصيل تكوينه .. بل إن لكل إنسان ذاته المستقلة تماما عن الآخرين منذ خلق آدم حتى قيام الساعة .. إن أصابع اليد الواحدة فى الإنسان الواحد تختلف عن بعضها فما بال أصابعنا جميعاً !

لكل إنسان بصمة إصبع تختلف تماماً عن بصمات الآخرين ...

(أيحسب الإنسان ألن تجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوى بنانه) [1]

---

(١) القيامة ٣ : ٤ - بنانه : أطراف أصابعه

ولكل إنسان رائحة خاصة لا تتكرر مع غيره بدليل أن الكلب البوليسى الذى يمتاز بدقة حاسة الشم يستطيع التعرف على إنسان من رائحته من بين العديد من الناس ... ولكل إنسان نبرات صوت لا تتكرر ... حتى الأسنان أيضاً تختلف من إنسان إلى آخر .. لكل جسد شفرة خاصة لا تتفق مع جسد آخر .. وإذا جرح إنسان فسرعان ما تلتئم جروحه بتفاعل ذاتى من الجسد .. أما إذا نقل عضو من إنسان إلى آخر فإن جسده قد يلفظه .. وكثيرا ما يرفض جسم أم كلية ابنها أو العكس .. فالجسد يعرف أعضاءه بشفرة خاصة فى تكوينه تختلف تماما عن سائر أجساد البشر .. تلك الشفرة هى التى توجد التعارف والتقارب أو النفور .

وعندما يموت الإنسان .. يتحلل جسده .. تختلط عناصره بعناصر الأرض .. تكون غذاء جديداً .. يختلط بمخلوقات أخرى .. ورغم ذلك فإن قدرة الله فوق كل شئ .. وعندما يصدر أمره سبحانه وتعالى يوم القيامة .. تتجمع عناصر تكوين كل إنسان .. بل كل مخلوق .. بالنسب نفسها التى كانت عليها فى الدنيا .. ويبعث الشخص نفسه بجسده وملامحه بهيئته وشخصيته يبعث بذاته التى كانت فى الدنيا .. ذاته التى تميزه عن سائر خلق الله أجمعين منذ بدء الدنيا حتى قيام الساعة .

يبعثنا الله بتكويننا نفسه .. لكنه يطوع هذا التكوين بقدرته عز وجل بما يتلاءم مع حياة الآخرة ، ففى الدنيا نعيش ونموت .. أما الآخرة فنعيش فيها ولا نموت ، فى الدنيا تقاس حياتنا بالزمن .. إذ نتحول من أطفال إلى شباب ثم شيوخ .. أما فى الآخرة فلا زمن فيها بل نبقى شبابا دائما إلى الأبد .

الحواس فى الدنيا ضعيفه لكنها تقوى فى الآخرة (فبصرك اليوم حديد) [1] .. فلا تستطيع فى الدنيا تحمل نور ملكوت الله .. إذ لم يتحمل موسى عليه السلام

---

(١) ق - جزء من آية ٢٢ .

رؤيته عز وجل وصعق .. لكن بتكويننا الجديد فى الآخرة يستطيع أهل الجنة التمتع برؤية وجهه الكريم .. (وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة) [1] ...

تمكننا الحواس القوية فى عالم الخلود من التمتع الكامل بالنعيم الأبدى الخالص أو الإحساس الكامل بعذاب الجحيم دون موت والعياذ بالله .

(تقع بلايين الأحداث فى اللحظة من لحظات الدنيا .. شخص يولد وآخر يموت .. أفراح هنا وأحزان هناك .. حروب فى بلاد .. وسلام فى بلاد .. وفى لحظة أخرى تنقلب الأوضاع .. تنعكس الأحوال .. أرزاق .. أرزاق يوزعها الرزاق على كافة خلقه فى وقت واحد .. لكن الخلق لا يستطيعون إدراك ذلك لأن قدراتهم محدودة ولأن فى الأرض حواجز ومسافات ورغم ذلك فإن العلم البشرى قد مكننا من سماع ومشاهدة بعض الأحداث من خلال الإذاعة والتليفزيون .. إن كانت تلك هى قدرات الخلق .. فما بالك بقدرة الخالق ! .

تنشق الأرض يوم القيامة .. يبعث الله الخلق جميعا .. يُحشرون حشرا فى أرض الأسباب .. ثم ينتقلون إلي أرض المعاد .. أرض بلا بحار ولا جبال .. أرض بلا حواجز على الإطلاق .. ويتم الحساب .. يتم فى يوم واحد ليس له غد .. يوم طويل عسير .. لن يترك مخلوق سدى .. يُسأل أو يحاسب الجميع فرداً فرداً .. يتم الحساب على مرأى ومسمع من كافة خلق الله أجمعين .. كيف ؟

لا تسأل .. لأنى لن أجيب .. فتلك هى قدرة الله وحده سبحانه وتعالى .

يمكننا خلقنا الجديد من سماع ومشاهدة كل شئ يوم البعث .. (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) [2] ....

سئل على بن أبى طالب رضى الله عنه : كيف سيحاسب الله الناس جميعاً فى وقت واحد ؟

---

(١) القيامة - ٢٢ : ٢٣

(٢) هود - جزء من آية ١٠٣ .

قال : كما يرزقهم فى وقت واحد .

تقع بلايين الأحداث فى اللحظة من لحظات الدنيا ...

(وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ، قل كونوا حجارة أو حديداً ، أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة ..) [1] .

---

(١) الاسراء : الأيتان ٤٩ ، ٥٠

رفاتا : أجزاء مفتتة أو تراباً أو غبارا

يكبر : يعظم عن قبول الحياة .

فطركم : أبدعكم وأحدثكم .

يقول الله تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام فى حديث قدسى

(عش ماشئت فإنك ميت ..
أحبب من أحببت فإنك مفارقه ..
امتلك ما امتلكت فإنه للتراب ..
اعمل ما عملت فإن عملك مصاحبك) ..

روى أبو داود والطيالسى عن الحسن بن أبى جعفر عن أبى الزبير عن جابر قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال جبريل : (يا محمد عش ماشئت فإنك؛ ميت ، وأحب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ماشئت فإنك ملاقيه) .

الحوض

(إنا أعطيناك الكوثر) [1]

يخرج خلق الله من قبورهم عطاش .. يحشرون فى زحام رهيب .. وتتوالى أحداث يوم الحشر .. يطول اليوم .. ويطول معه كرب العباد .. يشتد بهم العطش .. ويتزايد شعورهم بالحرمان .. فالحر جد شديد .. الشفاه ذابلة .. اللسان جاف .. والوجوه واجمة حزينة .. يشتهى الإنسان قطرة من ماء .. نسمة من هواء .. ومضة من نور .. يود لو يصرخ .. يبكى .. ينادى ويقول أي شئ .. أو لاشئ .. لكن سرعان ما تتبدل الأحوال .. وتتنزل رحمة الله على عباده الأبرار .. تتنزل بظلالها الوارفة ... لتمسح على القلوب بالروح والريحان [2] والندى ..وتزيح الأهوال .. فتأتى ريح من الجنة .. تنتشر بين أرجاء المكان .. فتشرق الوجوه .. تكسوها الفرحة .. وتعلوها البسمة .. إذ يسمع الناس خرير مياه [3] .. يستروحون نسائم رقيقة .. فيتعجبون .. يتهامسون ويتساءلون .. ثم يعرفون .. يعرفون أنه فيض غزير يجود به الرحمن على عباده الأبرار .. إنه الكوثر .. والكوثر نهر فى الجنة يصب ماءه فى حوض النبى صلى الله عليه وسلم فى ساحة القضاء ، ويطلق على الحوض أيضا كوثر لأن ماءه من نهر الكوثر .

روى مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه قال :

قلت يا رسول الله ك ماآنية الحوض ؟

قال : (والذى نفسى محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها فى الليلة المظلمة المصحية ، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ ، آخر ماعليه بشخب فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ ، عرضه مثل طوله ، مابين عمان إلى

---

(١) الكوثر : من الكثرة وهو الخير الكثير ، والكوثر نهر فى الجنة .

(٢) الروح : الراحة (الاستراحة) الروح والريحان : الرحمة والرزق

(٣) الخرير : صوت الماء .

أيلة

ماؤه أشد بياضا من الثلج وأحلى من العسل) (١) .

إن الأرض المبدلة .. بيضاء كالفضة .. مطهرة من الخطايا حتي تتناسب مع نزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء .. والحوض عليها كبير فاخر .. متسع الجوانب والزوايا فطوله مثل عرضه .. ويسيل ماؤه فوق الأرض .. روى الإمام أحمد عن أنس أنه قرأ هذه الآية (إنا أعطيناك الكوثر) قال .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أعطيت الكوثر فإذا هو نهر يجرى ولم يشق شقا وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ فضربت بيدى فى تربته فإذا مسك إذخر وإذا حصباؤه اللؤلؤ) (٢) .

يتراءى الحوض أمام الجميع .. يتلألأ بريقا وضياء .. أضواء .. أشكال ...وألوان من الأحجار الكريمة .. أجل ! .. إن أرض الحوض وشواطئه طينا وترابا .. ليست رمالا وحصباء .. بل إن ماءه يجرى على المسك واللؤلؤ والجواهر .. إن ماء الحوض أشد بياضاً من اللبن .. أبرد من الثلج .. وأحلى من العسل .. رائحته أطيب من المسك والعنبر .. يالروعة الحوض وماءه !!!

ياجمال آنيته وكثرتها !

من يشرب من ماء الحوض لا يظمأ أبداً .. ومن لا يشرب منه لا يروى أبداً .. ولن يشرب منه كافر .

تهفو النفوس المتعطشة إلى شربة ماء .. فيسرع الناس إلي الحوض .. لكنهم يجدون من سبقهم إليه ... يناديهم ويدعوهم للشرب .. يتعجبون .. ويذهلون ...

إنهم يرونه رأى العين .. يلقونه وجها لوجه .. إنه محمد .. محمد عليه الصلاة والسلام ، تعلو النداءات : يا حبيبى .. ياحبيبى يامحمد .. ياحبيب الله . وتنهمر

---

(١) يشخب : يسيل : الميزاب : أنبوب الماء ، والجمع ميازيب ... أيلة : كانت مدينة عامرة ، بطرف بحر القلزم (البحر الأحمر) من طرف الشام وهى الآن خراب ، يمر بها الحاج من مصر وتكون عن شمالهم وإليها تنسب العقبة المشهورة عند أهل مصر : (خليج العقبة) عقبة أيلة .

(٢) قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد أخبرنا ثابت عن أنس أنه قرأ هذه الآية : (الآية والحديث) .

دموع الفرح من العيون .. أخيراً يلقون محمداً ويلقون معه أبا بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم من الصحابة الكرام .

ربى ! إن الحياض كثيرة .. تتلألأ عندها الأنوار .. إنها أنوار الأنبياء عليهم السلام .. فهذا إبراهيم صلى الله عليه وسلم .. وذاك موسى .. هاهو عيسى .. نوح .. سليمان .. وسائر أنبياء الله الكرام .. إن لكل نبى حوضاً يشرب منه المؤمنون من أمته ويمنع عنه الكافرون .. وتهفو نفوس جميع الأمم التى آمنت بكل رسل الله وأنبيائه إلي لقائهم أجمعين .. فيصير اللقاء ... لقاء الفرحة واللهفة .. لقاء البهجة والشوق بين الأجيال على الأزمان .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(حوض مابين كذا إلى كذا فيه من الآنية عدد نجوم السماء أحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، وأبيض من اللبن ، من شرب منه لم يظمأ أبدا ، ومن لم يشرب منه لم يرو أبداً [1] .

عن سلمان رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر يوم من شعبان فقال : (أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك) وذكر تمام الحديث بطوله فى فضل شهر رمضان إلى أن قال : (من أشبع فيه صائماً سقاه الله من حوضى شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنة) [2] .

وردت أحاديث كثيرة عن الحوض ووضعه .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن لى حوضا طوله مابين الكعبة إلى بيت المقدس) .. وقال فى حديث آخر :

(عرضه مثل طوله مابين عمان إلى أيله) .. وأيله عند خليج العقبة بطرف البحر الأحمر من ناحية الشام .. وكانت مدينة عامرة لكنها أصبحت خرابا وكان عليه

---

(١) رواه يحيى بن محمد بن صاعد عن سوار بن عبدالله القاضى العنبرى عن أشعث بن عبدالملك الحمرانى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحديث) .

(٢) روى الإمام أبو بكر بن خزيمة رحمه الله من حديث على بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب عن سلمان رضى الله عنه : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحديث) .

الصلاة والسلام يقدر اتساع الحوض بالزمن فى أحيان أخرى فيقول :

(حوضى مسيرة شهر) .. وكلها مسافات واحدة المقصود منها أنه حوض متسع الجوانب والزوايا .. وإنما كان صلى الله عليه وسلم يخاطب كل طائفة من الناس بما تعرفه من مسافات .

ونضيف إلي تلك الأحاديث الشريفة ماأخرجه البخارى عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حوضى مسيرة شهر وزواياه سواء ، وماؤه أبيض من الورق ، وريحه أطيب من المسك ، كيزانه كنجوم السماء من ورد فشرب منه لم يظمأ بعده أبداً .. يسبق النبى صلى الله عليه وسلم أمته إلى الحوض .. يعرفها كما يعرف كل نبى أمته بسيماء خاصة بهم ، وتتميز أمة محمد بنور الوضوء .. إذ يتجلى النور من الوجوه والأطراف التى تتناول الماء عند الوضوء .. وإذا بالنبى يرى رجالاً من أمته .. لكن يفاجأ بالملائكة تطردهم وتبعدهم عن الحوض .. فينادى عليه الصلاة والسلام : يارب أصحابى فيقال له : إنك لاتدرى مافعلوا بعدك .. فقد ارتدوا واقترفوا المعاصى .

أخرج البخارى رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم قال : (أنا فرطكم على الحوض ، وليرفعن معى رجال منكم ، ثم ليختلجن دونى ، فأقول : يارب ، أصحابى فيقال : إنك لا تدرى ماأحدثوا بعدك) (١) .

عن ابن عباس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوقوف بين يدى رب العالمين هل فيه ماء ؟

---

(١) أخرج البخارى حدثنا عمرو بن على - حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن المغيرة ، قال : سمعت أبا وائل عن عبدالله - رضى الله عنه - عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (الحديث) .

فرطكم : سابقكم إليه لأصلحه وأهيئه لكم .

وليرفعن رجال منكم حتى أراهم : أى ليظهرن له رجال حتى يراهم بعينه .

ليختلجن : يجتذبون ويقتطعون عنى (فأقول يارب أصحابى) : أى من أمتى .

فيقال : إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك) : أى من الردة عن الإسلام أو من المعاصى .

قال : أى والذى نفسى بيده إن فيه لماء ، إن أولياء الله ليردون حياض الأنبياء ، ويبعث الله سبعين ألف ملك في أيديهم عصى من نار يذودون الكفار عن حياض الأنبياء) [١] .

خرج الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث عثمان بن مظعون ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى آخره : (ياعثمان لاترغب عن سنتى فمن رغب عن سنتى ثم مات قبل أن يتوب ضربت الملائكة وجهه عن حوض يوم القيامة) .

عن أبى طالوت العنبرى سمعت أبا برذة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (فى الحوض) فمن كذب به فلا سقاه الله منه . [٢] .

عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن لى حوضا طوله ما بين الكعبة إلى بيت المقدس أشد بياضا من اللبن آنيته عدد النجوم وكل نبى يدعو أمته ولكل نبى حوض فمنهم من يأتيه العصبة ، ومنهم من يأتيه النفر ، ومنهم من يأتيه الرجلان والرجل ، ومنهم من لا يأتيه أحد .

فيقال : لقد بلغت ، وانى لأكثر الانبياء تبعا يوم القيامة) [٣] .

روى ابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (إن لى حوضاً مابين الكعبة وبيت المقدس أبيض مثل اللبن آنيته عدد نجوم السماء ، وإنى لأكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة) .

روى ابن ماجه عن الصنابجى الأحمسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) قال ابن أبى الدنيا ثنا العباس بن محمد ثنا حسن بن محمد المروزى ثنا محض بن عقبة اليمانى عن الزبير بن شبيب عن عثمان بن حاضر عن ابن عباس قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحديث) .

يذودون : يردون ويدفعون .

(٢) قال أبو بكر بن أبي الدنيا ثنا أبو خثيمة ثنا يزيد بن هارون ثنا محمد بن بهرم العبدى عن أبى طالوت العنبرى سمعت أبا برذة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (الحديث) .

(٣) قال الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب الأهوال ثنا محمد بن سليمان الأسدى ثنا عيسى بن يونس عن زكريا بن عطية عن أبى سعيد أن رسول الله (ص) قال: (الحديث) .

(ألا إنى فرطكم على الحوض وإنى مكاثر بكم الأمم فلا تقتتلن بعدى) .

أتحب أيها القارئ أن تسمع مايشبه خرير الكوثر ؟

إذا أحببت ذلك ، فضع إصبعك فى أذنيك .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : من أحب أن يسمع خرير الكوثر فيجعل أصبعه فى أذنيه (١) .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب والماء يجرى على اللؤلؤ وماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل) (٢) .

إن عطاء الله فياض بلا حدود .. فاخلص لربك .. اخلص له فى الصلاة المفروضة وفى النافلة .. ولاتشرك به أحدا ... بل اشكره على نعمه .. وانحر .. اذبح الذبائح شكراً لله سبحانه وتعالى .. واذكر عليها اسم عز وجل وحده لا شريك له .

(إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر) (٣) .

فى مسند الإمام أحمد عن النبى صلى الله عليه وسلم :

(مامن يوم إلا والبحر يستأذن ربه : أن يغرق ابن آدم .

والملائكة تستأذن : أن تعاجله وتهلكه .

والرب تعالى يقول : دعوا عبدى ، فأنا أعلم به ، إذا أنشأته من الأرض .

إن كان عبدكم فشأنكم به ، وإن كان عبدى فمنى وإلى .

---

(١) حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن أبى جعفر الرازى عن ابن أبى نجيح عن عائشة رضى الله عنها قالت : (من أحب أن ... إلخ) وهذا منقطع بين ابن أبى نجيح وعائشة ، وفى بعض الروايات عن رجل عنها ومعنى هذا أنه يسمع نظير ذلك لا أنه يسمعه نفسه والله أعلم ، قال السهيلى ورواه الدارقطنى مرفوعا من طريق مالك بن مغول عن الشعبى عن مسروق عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) قال الإمام أحمد حدثنا على بن حفص حدثنا ورفاء قال : وقال عطاء عن محارب بن دثار عن ابن عمر قال : قال رسول الله (ص) : (الحديث) وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه وابن أبى حاتم وابن جرير من طريق محمد بن فضيل عن عطاء بن السائب به مرفوعا وقال الترمذى حسن صحيح .

(٣) الكوثر - ١ : ٢ أعطيناك الكوثر : نهراً فى الجنة أو الخير الكثير .

انحر : الأضاحى نسكاً ، شكراً لله تعالى .

عبدى ، وعزتى وجلالى إن أتانى ليلاً قبلته ، وإن أتانى نهاراً قبلته ، وإن تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً .

وإن مشى إلى هرولت إليه ، وإن استغفرنى غفرت له .

وإن استقالنى أقلته ، وإن تاب إلى تبت عليه .

من أعظم منى جوداً وكرماً ، وأنا الجواد الكريم ؟

عبيدى يبيتون يبارزوننى بالعظائم ، وأنا أكلؤهم فى مضاجعهم ، وأحرسهم فى فرشهم .

من أقبل إلى تلقيته من بعيد ، ومن ترك لأجلى أعطيته فوق المزيد ومن تصرف بحولى وقوتى ألنت له الحديد ، ومن أراد مرادى أردت مايريد .

أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل شكرى أهل زيادتى .

وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى .

إن تابوا إلى فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، ابتليتهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب) .

اللوح المحفوظ والكتب

(... ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ...) [1]

---

(١) الكهف . جزء من آية ٤٩ . لايغادر : لا يترك ولايبقى .
أحصاها : عدها وضبطها وأثبتها .

وتتساءل صديقى القارئ كالمعتاد : ما اللوح المحفوظ ؟ ما الكتاب ؟
وما العلاقة بينهما ؟ كيف يحصى الكتاب كل صغيرة وكبيرة على ابن آدم ؟
كيف خلقنا على الفطرة ؟
وكيف أشهدنا الله على ربوبيته ؟ وأين كنا وقتئذ ؟

صبراً ... مهلاً عزيزى القارئ ... تساؤلاتك غزيرة .. وعلم الله أغزر ... فلنحاول معاً أن نقتبس الومضات التى يسمح لنا بها سبحانه وتعالى من علمه الفياض العظيم .. ادع الله معى أن يوفقنا إلي مايرضيه عنا ويبعدنا عما يغضبه منا .. وأن يفتح علينا .. يقبل أعمالنا .. ويضع لها القبول فى السماء والأرض .. وأن يجعلها كلها فى ميزان حسناتنا .

ولنبدأ الحكاية : من البداية حتى النهاية .. عفواً أيها القارئ ..
أقصد : من اللا بداية حتى اللا نهاية .

القدر فى اللوح المحفوظ .

كان الملك القدوس جل جلاله منذ الأزل .. لايزال .. وسيبقى إلى الأبد .

خلق اللوح المحفوظ .. خلق القلم .. قال له : اكتب .. فكتب القلم .. كتب القدر.. عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : (إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : ما أكتب ؟ قال ، اكتب القدر ، فكتب ما كان وماهو كائن إلى الأبد) (١) .

عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

(إن الله تعالى خلق لوحا محفوظا من ذرة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور) (٢) .

---

(١) رواه أبو دواد والترمذى فى سننهما ، ورواه الإمام أحمد فى مسنده ج ٥ صـ٢١٧ ، وهو حديث صحيح .

(٢) قال الطبرنى حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة حدثنا منجاب بن الحارث إبراهيم بن يوسف حدثنا زياد بن عبدالله عن ليث عن عبدالملك بن سعيد بن جبير عن ابيه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال (الحديث) .

وفى صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة) [1].

لم يخلق الكون مصادفة أو جزافاً .. لم يخلق عبثا .. بل كانت الأقدار فى علم الله الأولى .. قدرها بحكمة بالغة ودقة متناهية .. قدرها فى نظام محكم وتناسق تام .. ثم كتبت فى أم الكتاب .. اللوح المحفوظ .. ثم خلق الله الكون : خلق السماوات والأرض .. خلق كل ما فيهما من مخلوقات .. وخلق البشر .

لا تتصور أيها الكائن البشرى أن اللوح المحفوظ كتاب قاصر على تاريخ حياتك فحسب .. لا يا عزيزى .. فأنت لست المخلوق الأوحد فى الوجود !

إن اللوح المحفوظ كتاب شامل .. كامل .. سجل حافل بالعلم والمعرفة علم الغيب .. علم الأديان .. الكتب السماوية .. القرآن الكريم ..

(إنه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون) [2] (إنا جعلناه قرءاناً عربياً لعلكم تعقلون ، وإنه فى أم الكتاب لدنيا لعلى حكيم) [3] (بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ) [4] ...

كذلك علم الفلك .. الكيمياء .. الطب .. وغيرها وغيرها من العلوم التى لا حصر لها .. العلوم التى يحاول العلم البشرى أن ينهل منها .. ومع ذلك فإن أقصى ما يستطيع الإنسان كفرد أن يصل إليه لا يتعدى تخصصه فى جزئية من جزء من فرع من فروع علم من العلوم التى لا حصر لها عند الواسع العليم جل جلاله وتقدست أسماؤه .. وأقصى ما استطاع العلم البشرى ككل أن يصل إليه منذ بدء

---

(١) فى صحيح مسلم من رواية عبدالله بن وهب وغيره عن أبى هانئ الخولانى عن ابن عبد الرحمن الجيلى عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم (الحديث) زاد ابن وهب : (وكان عرشه على الماء) ورواه الترمذى وقال حسن صحيح غريب .

(٢) الواقعة - ٧٧:٧٨ إنه لقرآن كريم : نفاع جم المنافع ، أو رفيع القدر .

كتاب مكنون : مستور مصون عند الله فى اللوح المحفوظ من السوء .

(٣) الزخرف - ٣:٤ أم الكتاب : اللوح المحفوظ ، أو العلم الأزلى .

(٤) البروج - ٢١ : ٢٢ .

الخليقة حتى اليوم لم يتعد سوى أطراف من علم الله الأزلى ..

(إنا كل شئ خلقناه بقدر) (١) .

أجل .. لقد خلق العليم الحكيم كل شئ بقدر .. خلق عوالم الفضاء الشاسع .. إذ تسبح المجرات والأجرام الهائلة فى الفلك الغامض .. يسبح مايزيد عن بلايين من النجوم والكواكب .. منها ماهو مرئى ومالا يمكن رؤيته بالعين المجردة .. منها مالا يرى حتى بالمجاهر والأجهزة بل تتحسسه دون أن تراه .. ومنها مالم يصل الفلكيون إلي علمه بعد .. يسبح كل نجم فى مجاله المغناطيسى الذى لا يقترب من المجال المغناطيسى لنجم آخر حتى لايحدث الاصطدام .

سبحان الله ! قدر كتلة الشمس .. درجة حرارتها وبعدها عن كوكب الأرض .. قدر كتلة الأرض وسرعة دورانها حول نفسها وحول الشمس .. وبعد القمر عنها وسرعة دورانه حولها .. حسب عز وجل كل شئ .. حدد موقعه .. أبعاده .. وارتباطه بكل ماحوله .. ومدى تأثيره فى الوجود .

سبحان الله ! قدر نسب توزيع الماء واليابس فى الأرض .. قدر طبقاتها .. وقدر نسب عناصر الماء والهواء لضرورة الحياة على وجهها .. إلى ملايين النسب التى إذا وقع خلل فى أى منها لتغير كل شئ فكانت النهاية الحتمية للحياة على وجه الأرض (.. عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) (٢) .

سبحان القادر المقتدر ! خلق الذرة بقدر محسوب لتؤدى دورها فى الحياة ... فى الوجود بأسره .. بل خلق ماهو أصغر من الذرة .. خلق البروتون والإلكترون والنيوترون ، فأصغر ذرة هى ذرة غاز الهيدروجين الخفيف التى يوجد عند مركزها

---

(١) القمر - ٤٩ .

(٢) سبأ .

لايعزب عنه : لا يغيب عنه ولا يخفى عليه . مثقال ذرة : مقدار أصغر نملة أو هباءة .

بروتون ذو شحنة كهربائية موجبة ... يدور حوله جسيم أصغر منه هو الإلكترون ذو الشحنة السالبة ، وهناك ذرات أعقد من ذرة الهيدروجين بها نيوترونات عند مركزها لاشحنة لها .. وأكثر الذرات تعقيداً هى ذرة اليورانيوم إذ تحتوى على ٩٢ الكترون و ٩٢ بروتون و١٤٦ نيوترون .

ويتكون العنصر من ذرات مماثلة .. إذ يختلف عنصر عن آخر باختلاف عدد البروتونات الموجودة فى النواة .. ويتكون الجزئ من العنصر .. وتتكون المادة من الجزيئات ، فعند اتحاد ذرة واحدة من عنصر الأكسجين مع ذرتين من الهيدروجين يتكون جزئ واحد من الماء .

يالها من عظمة إلهية فاقت كل الحدود .. يالها من دقة فى التقدير وكمال فى التدبير .. ياله من علم أزلى واسع عظيم .. علم مسجل فى اللوح المحفوظ ! علم عند الله وحده سبحانه وتعالى .

دعنى أتوقف لحظة أخى القارئ ... أفكر : ماذا أكتب .. وماذا تقرأ ؟

ماتلك السطور ؟ أين هى من العلم البشرى العظيم ؟ !

العلم الذى توصل إليه عقل الإنسان منذ بدء الخليقة حتى اليوم ! وأين ذلك العلم البشرى من علم الله الأزلى ؟ علم الله الذى يرتفع ويرتقى .. بل ويسمو فوق أية صفة يمكن وصفه بها .

إنى أتصور تلك السطور وكأنها إلكترون دقيق يدور حول نواة ذرة من ذرات الأرض .. أتخيل العلم البشرى وكأنه تلك الأرض .. مجرد كوكب ضمن مجموعة كواكب ونجوم سيارة فى عالم محدود .. عالم صغير من مجوعة عوالم أخرى .. عوالم تسبح بأسرها فى فضاء الكون المجهول !

سبحانك يا الله ! .

ماذا أقول عن تقدير خلق الجماد والنبات ! الميكروبات والحشرات ! الطيور والحيوانات ! الأميبا .. ذلك الحيوان الدقيق وحيد الخلية .. القادر على الحركة

والطعام .. المتمتع بكل مظاهر الحياة ! لا يعنى إلا أن أقول وتقول معى : سبحان الله ! الله الذى قدر الحركة العظيمة فى التاريخ مثلما قدر الانفعال أو النَّفَس فى صدر مخلوق صغير .. قدر كل شئ فى الوجود .. وجعل التوازن والتناسق بين الجميع .

سبحان البارئ المصور ! قدر خلق الإنسان .. قدر الجسم البشرى ومايحويه من ملايين الخلايا .. كرات الدم الحمراء .. كرات الدم البيضاء .. الغدد الليمفاوية .. خلايا المخ .. القلب .. الرئتين .. الكليتين .. الكبد .. وغيرها من الخلايا التى تتجمع لتكون الأعضاء والأجهزة المقدر لكل منها وظيفته ودوره فى الحفاظ على صحة وحياة الإنسان .. الأجهزة التى تكمن داخل الهيكل العظمى المكون من أكثر من ٢٠٠ عظمة تلتقى عند مفاصل متحركة .. تتماسك بأربطة تغطى أطرافها بالغضاريف أما العضلات فهى تزيد عن ٥٠٠ عضلة فى جسم الإنسان تتكون من آلاف الألياف .. ويغلف الهيكل العظمى باللحم الذى يكسوه إطار من الجلد .

سبحان الرشيد الصبور ! لم يقتصر تقديره على خلق الجسد بل اشتمل كل نفس يخرج من صدر إنسان .. وقدر رزقه .. عمله .. أجله .. سعادته أو شقاءه .. قدر مدى تأثره كفرد فى الوجود بأسره .. تأثيره الذى قد لا يعلمه هو ذاته لكنه مسجل فى اللوح المحفوظ .. فى العلم الأزلى عند الخالق العظيم جل جلاله وتقدست أسماؤه .

(ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) [١] .

---

(١) الحديد : ٢٢ : ٢٣ نبرأها : نخلق هذه المخلوقات

لكيلا تأسوا : لكيلا تحزنوا حزن قنوط .

لاتفرحوا : فرح بطر واختيال . مختال فخور : متكبر مباه متطاول بما أوتى .

لقد أعجبنى فى هذا الصدد قول عكرمة - رضى الله عنه - :

(ليس أحد إلا وهو بفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً) .

لم تخلق عبثا أيها الإنسان .. لم يقع فى حياتك حدث إلا بحكمة مقدرة .. قد تدركها وقد لا تدرك إلا عبر الأزمان ..فرؤيتك للحياة محدودة لأن عمرك محدود .. وعلم الله الأزلى الأبدى مطلق بلا حدود .. فليطمئن قلبك إلي قدره سبحانه وتعالى لأنه يطلع على مالا تراه ..فكثيراً ما تتكرر أحداث على مدى الحياة البشرية : منها الهجرة من بلاد لبلاد .. ومنها عدم الإنجاب .. أو الإنجاب فى عمر متأخر .. ما الحكمة وراء كل حدث من تلك الأحداث أو غيرها ؟

تختلف الحكمة تبعا للزمان والمكان والأشخاص .

وخير مثال إبراهيم عليه الصلاة والسلام .. إبراهيم أبو الأنبياء هاجر من بابل إلى بلاد الشام .. مصر .. وبلاد الحجاز .

عندما رحل إلى مصر كانت زوجته سارة عاقراً لم تنجب له أولاداً .. وكانا فى سن الشيخوخة .. التقيا بهاجر المصرية .. عادت معهما إلي بلاد الشام .. تزوجها إبراهيم .. أنجبت إسماعيل عليه السلام الذى صار أبا العرب .. سكنت هاجر ورضيعها إسماعيل فى مكة حيث بيت الله الحرام .. ويمضى الزمن حتى يولد محمد عليه الصلاة والسلام - يولد فى مكة عند بيت الله الحرام .. يترعرع هناك يحمل رسالة الإسلام إلي العالم كافة .. ويصير خاتم الأنبياء .. حينما هاجر إبراهيم إلي بلاد الشام لم يكن عنده ولد واحد !

وهناك .. رزقه الله باسحاق بعد مولد إسماعيل بثلاثة عشر عاما ! رزقه الله الأبناء الصالحين وجعل فى ذريته النبوة والكتاب وصارت بلاد الشام والحجاز مبعث الأديان السماوية كما هو مقدر فى علم الله الأزلى .

توالت الأزمان .. وتفجرت أحداث ماتزال تؤثر فى مجرى حياة العالم كله حتى يومنا هذا .

(وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) [١] .

سبحان الله ! قدر كل شئ فى الوجود .. حتى ورقة الشجرة الساقطة على الأرض محسوبة ومعلومة فى علم الله الأزلى .. مقدرة ومسجلة فى اللوح المحفوظ !

حتى ذرة التراب .. تراب الأرض الذى يستهين به الإنسان .. كان هو مصدر وجوده .. فما فى جسمه من عنصر إلا وله مثيل فى عناصر أمه الأرض .

سبحان الله ! أين ذرات التراب من ذلك المخلوق المركب العظيم !

إنه السر الإلهى الذى أودعه الله إياه .. إنها الروح .. نفخ الملك القدوس جل جلاله من روحه المقدسة فى جسد آدم الترابى فصار فيه قبس من نور الله .. أخذ عهد الفطرة .. حمل الأمانة .. ونزل إلى الأرض .. صار أعظم مخلوق عي وجهها .. وأصبح خليفة فيها .. ومن أجله خلقت سائر المخلوقات .. وبالرغم من ذلك فإنه مهما حاول العقل البشرى أن يرتاد آفاق العلم والمعرفة فإنه سيظل يسبح فى بحر من المجهول .. المجهول المعلوم عنده سبحانه وتعالى .

(ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ، وإن من شئ إلا عندنا خزائنه ومانزله إلا بقدر معلوم) [٢]

---

(١) الأنعام - ٥٩

(٢) الحجر - ١٦ : ٢١

رجيم : مطرود أو مرجوم بالنجوم .

استرق السمع : خطف المسموع من الملإ الأعلى .

فأتبعه : أدركه ولحقه .

كتاب مبين : اللوح المحفوظ أو علمه تعالى .

بروجاً : منازل الكواكب السيارة .

رواسى : جبالا ثوابت كيلا تميد .

موزون : مقدر بميزان الحكمة .

معايش : أرزاقا يعاش بها .

عهد الفطرة

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ..) (١) .

لما خلق آدم .. خلقت ذريته كافة فى ظهره .. كان بنو آدم وقتئذ مجرد ذر (٢) فى غاية الدقة حتى إنه لايرى بالعين المجردة .. كانت كل ذرة من ذرية آدم تمثل حياة صاحبها .. تحمل صفات الإنسان وتاريخ حياته .. وكى تستمر سلسلة الحياة كان لابد من اتصال حلقاتها .. فكل إنسان يولد تكمن ذريته فى صلبه .. والعكس صحيح : إذ أن حياة كل إنسان كامنة فى ظهر أبيه .. ومن ثم تتوالى الأجيال حتى قيام الساعة .

هكذا كان لنا وجود فى الملكوت الأعلى حين أخذ الله علينا عهد الفطرة .. عهد التوحيد .. وهو الميثاق المعقود بين فطرة البشر منذ كينونتهم الأولى وبين خالق البشر .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إ الله مسح ظهر آدم .. وأخرج منه الذرية المطمورة فيه ، والتى ستأتى إلي الحياة حتى قيام الساعة .. وقال لهم : ألست بربكم ؟

---

(١) الأعراف - جزء من آيه ١٧٢ .

لتوضيحها نذكر الأيات ٥:٧ من سورة الطارق (فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) .

الصلب : منطقة العمود الفقرى .   الترائب : عظام الصدر .

وقد بينت الدراسات الجنبنية الحديثة أن نواة الجهاز التناسلى والجهاز البولى فى الجنين تظهر بين الخلايا الغضروفية المكونة لعظام العمود الفقرى وبين الخلايا المكونة لعظام الصدر ، وتبقى الكلى فى مكانها وتنزل الخصية أو المبيض إلى مكانها الطبيعى عند الولادة ، وعلى الرغم من انحداء الخصية إلي أسفل فإن الشريان الذى يغذيها بالدم طول حياتها يتفرع من الأورطة بحذاء الشريان الكلوى . كما أن العصب الذى ينقل إليها الإحساس ويساعدها على إنتاج الحيوانات المنوية وما يصاحب ذلك من سوائل تتفرع من العصب الصدرى العاشر الذى يغادر النخاع الشوكى بين الضلعين العاشر والحادى عشر ، وواضح من ذلك أن الأعضاء التناسلية ومايغذيها من أعصاب وأوعية دموية تنشأ من موضع فى الجسم بين الصلب والترائب والعمود الفقرى والقفص الصدرى) .

(٢) الذر : جمع (ذرة) وهى أصغر النمل ومنه سمى الرجل (ذرا) وكن أبو ذر و (ذرية) الرجل ولده والجمع الذرارى و (الذريات) .

قالوا : نعم أنت ربنا سبحانك) .

مسح البارئ المصور جل جلاله على ظهر آدم .. أخرج ذريته .. ثم أخذ من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم (وأشهدهم على أنفسهم .. ألست بربكم) (١)

وأجابت كل نسمة هو خالقها إلي يوم القيامة .. أقرت واعترفت بربوبيته وعبوديتها له سبحانه وتعالى .. شهدت له بالوحدانية وهى منثورة جميعها كالذر مجوعة فى قبضته جل جلاله : (قالوا : بلى شهدنا) (٢) .

جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل مولود يولد على الفطرة) .

واستقرت الفطرة فى كل خلية حية عند نشأتها الأولى : أودعها الخالق الأعظم فى كيان البشر منذ كان فى عالم الذر .. فلا حجة لهم بعدئذ فى نقض الميثاق المبرم بينهم وبين خالقهم . ومن ثم كان التعقيب على تلك الشهادة .

(أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) (٣) .

أودع الله الفطرة فى الإنسان .. منحه العقل .. لكنه سبحانه وتعالى يعلم أن الفطرة قد تنحرف .. وأن العقل قد يضل .

فى صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يقول الله إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم) (٤) .

مسكين الإنسان ! سرعان مايغرق فى بحر النسيان .. ويضيع .. يضيع لأهون الأسباب .

جاء فى صحيح البخارى :

(إن الله يقول لأهون أهل النار عذاباً : لو أن لك مافى الأرض من شئ كنت تفتدى به ؟ قال : نعم .

قال :، فقد سألتك عن ماهو أهون من هذا وأنت فى صلب آدم :

(١) الأعراف - جزء من ايه ١٧٢ .

(٢) الاعراف - جزء من ايه ١٧٢ .

(٣) الاعراف - جزء من آيه ١٧٢ : ١٧٣ .

(٤) في صحيح مسلم عن عياض بن حماد قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم (الحديث) .

أن لا تشترك بى ، فأبيت إلا الشرك) [1] .

اقتضت رحمة الله تعالى بعباده ألا يحاسبهم عل عهد الفطرة .. وألا يحاسبهم على العقل الذى منحه إياهم .. بل يحاسبهم بعد أن يبعث فيهم الرسل .. مذكرين .. منذرين ومبشرين .. حتى لاتصير للناس حجة بعد ذلك .. سبحانك يا الله ! يارحمن يارحيم ! .

---

(١) حدثنا قيس بن حفص حدثنا خالد بن الحارث حدثنا شعبة عن أبى عمران الجونى عن أنس يرفعه (الحديث) (الحديث ٣٣٣٤ - طرفاه فى ٦٥٣٨ ، ٦٥٥٧) .

(وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) (١)

(من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وماكنا معذبين حتى نبعث رسولاً) (٢)

الكتاب والكرام الكاتبون

يفتح لكل إنسان كتاب خاص به .. كتاب يسجل تاريخ حياته منذ مولده حتى وفاته .. كان ذلك الكتاب بكل مايحويه من تفصيلات فى علم الله الأزلى .

فما هو إلا نسخة طبق الأصل مما تم تسجيله فى اللوح المحفوظ بشأن هذا الإنسان والعلم عند الله .

ويبقى التساؤل : متى يفتح هذا الكتاب ؟ كيف يكتب ؟ ومتى يطوى ؟

كيف ومتى ينطق علينا بالحق ؟

ينبثق من القرآن الكريم شعاع من نور .. نور يهدينا إلى مراحل خلق الإنسان حتى مولده .. ثم موته وبعثه يوم القيامة .. يهدى إلينا القرآن المجيد قصة كاملة متكاملة .. علما واسعا عميقا .. بمنتهى الروعة .. الإيجاز .. الدقة فى التعبير .. علم لم يصل العقل البشرى إلى أغواره إلا بعد قرون وأزمان .. يهديه إلينا القرآن العظيم من خلال خمس آيات من سورة المؤمنون ١٢ : ١٦ .

(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة (١) فى قرار مكين (٢) ثم خلقنا النطفة علقة (٣) فخلقنا العلقة مضغة (٤) فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر (٥) فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) .

سبحان الله ! حول الطين إلى خلايا حية حتى صار الإنسان .. مسافة هائلة بين الطين وبين الإنسان .. مسافة تضمر فى ثناياها السر الأعظم .. سر الحياة !

---

(١) الأعراف : ١٧٤ نطفة : ماء به عناصر الحياة الأولى .

(٢) الاسراء - ١٥ قرار مكين : مستقر متمكن وهو الرحم فكلمة قرار تشير إلى العلاقة بين الجنين والرحم إذ أن الرحم مكان لاستقرار الجنين أما كلمة مكين فتشير إلى العلاقة بين الرحم وجسم الأم

(٣) علقة : تتحول النطفة إلى علقة تعلق وتتغذى فى بطانة الرحم وتتغذى من دم الأم .

(٤) مضغة : تتغذى العلقة وتكبر فتتحول إلى أنسجة تشبه قطعة اللحم قدر ما يمضغ وليس فيها شكل ولا تخطيط .

(٥) خلقاً آخر : مباينا للأول ينفخ الروح فيه .

ونعود إلى كلمة (قرار) : فبالرغم من أن طبيعة الجسم أن يطرد أى جسم خارجى إلا أن الرحم سكن للجنين منذ مراحل نموه حتى مولده . فهو يأوى الجنين ويغذيه إذ أن للرحم عضلات وأوعية رابطة تحمى الجنين داخله ليس هذا فقط بل إنه أيضاً يستجيب لنمو الجنين ويتمدد بدرجة كبيرة ليتلاءم مع نموه فهو إذن قرار له .

ويحاط الجنين بعدة طبقات بعد السائل الأمنيوسى وهى الغشاء الأمينوسى المندمج بالمشيمة ، وطبقة العضلات السميكة للرحم ثم جدار البطن ، وكل هذا يمد الجنين بمكان مناسب للاستقرار وللنمو الجيد ، فكلمة (قرار) متضمنة وظائف الرحم باعتباره مكانا مناسبا لاستقرار الجنين وتمكينه من مواصلة نموه ، فهو لفظ معبر جامع .

أما كلمة (مكين) : فتعنى مثبت بقوة أى متمكن بقوة . مما يشير إلى علاقة الرحم بجسم الأم وموقعه المثالى لتخلق ونمو كائن جديد ، إذ يقع الرحم فى وسط الجسم وفى مركز الحوض وهو محاط بالعظام والعضلات والأربطة التى تثبته بقوة فى الجسم ، أى أنه مكين كما قرر القرآن الكريم . وهذا أيضاً لفظ جامع معبر عن كل المعانى التى تبين تمكن الرحم وتثبيته فى جسم الأم .

يفتح كتاب الإنسان فى تلك المراحل الأولى من خلقه .. قبل أن يكمل تكوينه كجنين فى بطن أمه .. وتنفخ فيه الروح ، والله أعلم .

ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : (إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين ليلة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح) (١) .

يكتمل خلق الإنسان .. ثم يخرج إلى الدنيا .. يخرج حراً .. متمتعا بحرية كاملة

---

(١) ثبت فى الصحيحين من حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق (الحديث) .

فى نيته وضميره .. فى سريرته .. ويفعل ماشاء .. لكنه لم يترك سدى .. فحذار حذار أيها الإنسان .. إنك لست وحدك ..

بل (وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين يعلمون ماتفعلون) (١) .

استح يا ابن آدم من الكرام الكاتبين .. فعن يمينك ملك يكتب كل حسناتك .. وعن يسارك اخر يكتب سيئاتك .. وأنت تعلم تلك الحقيقة لكنك لاتعايشها .. أما المسلمون الأوائل فقد عرفوها وعايشوها بإيمان ويقين تام حتى إنه حكى عن الإمام أحمد أنه كان يئن فى مرضه ولما سمع أن الأنين يكتب .. سكت حتى فاضت روحه رضوان الله عليه ولا يعنى فى هذا الصدد إلا الالتزام بالصمت : فليتفضل القرآن الكريم بالكلام .. وليتفضل الحديث الشريف بالتفسير .. ليتفضل العلماء بالتوضيح : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ماكنت منه تحيد ، ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) (٢) .

روى الإمام أحمد عن علقمة عن بلال بن الحارث المزنى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى مايظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل بها رضوان إلى يوم يلقاه ، وإن

---

(١) الانفطار - ١٠ : ١٢ .

(٢) ق - ١٦ : ٢٢ .

حبل الوريد : عرق كبير فى العنق . يتلقى المتلقيان : يحفظ ويكتب الملكان .

قعيد : ملك قاعد .. مترصد ما يلفظ ابن آدم .

رقيب عتيد : ملك حافظ لأقواله معد حاضر - إلا وله من يرقبه معد لذلك يكتبه لايترك كلمة ولا حركة .

سكرة الموت : شدته وغمرته الذاهبة بالعقل . تحيد : تميل عن وتفر منه وتهرب .

غطاءك : حجاب غفلتك عن الآخرة . حديد : نافذ قوى .

الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى مايظن أن تبلغ مابلغت يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه) (١) .

قال فكان علقمة يقول : كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث ؟

قال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال فإن أصاب العبد خطيئة قال له أمسك فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها ، رواه ابن أبى حاتم . وقال الحسن البصرى فى شرح الآية (عن اليمين وعن الشمال قعيد) : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ماشئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول تعالى : (وكل إنسان ألزمناه طائرة فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) (٢)

ثم يقول عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله أكلت شربت ذهبت جئت رأيت حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقى سائره وذلك فى قوله تعالى :

(يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) (٣) ... والله أعلم

---

(١) قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثى عن أبيه عن جده علقمة عن بلال بن الحارث المزنى رضى الله عنه قال : قال رسو ل الله صلى الله عليه وسلم : (الحديث) ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث محمد بن عمرو وقال الترمذى : حسن صحيح وله شاهد فى الصحيح .

(٢) الإسراء - ١٣ : ١٤

ألزمناه طائره : عمله المقدر عليه لا ينفك عنه .   حسيباً : حاسباً وعاداً ، أو محاسباً .

(٣) الرعد - ٣٩ .   أم الكتاب : اللوح المحفوظ أو العلم الإلهى .

يا ابن آدم ! استح من الحفظة الكرام الذين يحرسونك ليل نهار ..

(سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ....) (١) .

جاء في الصحيحين عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ك يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادى ؟

فيقولون : أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون) (٢) .

قال عكرمة عن ابن عباس (يحفظون من أمر الله) قال :

ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه .

وقال مجاهد : ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فمامنها شئ يأتيه يريده إلا قال له : الملك وراءك إلا شئ أذن الله فيه فيصيبه .

قال الإمام أحمد عن عبدالله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة) ، قالوا : وإياك يارسول الله ؟

---

(١) الرعد - ١٠ ، جزء من ١١

سارب : ذاهب فى سربه وطريقه ظاهراً .

له معقبات : ملائكة تتعاقب فى حفظه ليلاً ونهاراً .

من أمر الله : بأمره تعالى بحفظه .

(٢) فى لفظ فى الصحيحين من طريق مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (الحديث) .

قال : (وإياى ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بخير) (١) .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر) (٢)

يقول أبو هريرة :

اقرأوا إن شئتم (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) (٣)

ورد فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال : (صلاة الليل) .

ثبت فى الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر) .

ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لجبريل لما سأله عن الإحسان : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

جاء فى الصحيح (يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل).

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما من حافظين رفعا إلي الله ما حفظا من ليل أو نهار ، فيجد الله فى أول الصحيفة ، وفى آخر الصحيفة خيراً إلا قال الله تعالى : أشهدكم أنى قد غفرت

---

(١) قال الإمام أحمد يرحمه الله حدثنا أسود بن عامر وحدثنا سفيان حدثنى منصور عن سالم بن أبى الجعد عن أبيه عن عبدالله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحديث) .

(٢) قال البخارى حدثنا عبدالله بن محمد حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن أبى مسلمة - وسعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى (ص) قال (الحديث) .

(٣) الاسراء - جزء من آية ٧٩.　　　مشهوداً : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار .

لعبدى مابين طرفى الصحيفة (١) .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال :

(مامن عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله وكلامه فإذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية (فما بكت عليهم السماء والأرض) (٢) .

وذكر (أنهم لم يكونوا (٣) عملوا علي الأرض عملا صالحا يبكى عليهم ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكى عليهم) (٤) .

عن شريح بن عبيد الحضرمى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريباً كما بدأ ، ألا لا غربة على مؤمن ، مامات مؤمن فى غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض) ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (فما بكت عليهم السماء والأرض) ثم قال : إنهما لا يبكيان على الكافر) (٥) .

أتى ابن عباس رضى الله عنهما رجلا فقال يا أبا العباس أرأيت قول :

(فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) فهل تبكى السماء والأرض علي أحد ؟ قال رضى الله عنه نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب

---

(١) أخرجه الإمام الترمذى فى جامعة (من أبواب الجنائز) حـ ١ صـ١٨٣ قال (الحديث القدسى)

(٢) الدخان : جزء من آيه ٢٩ والمقصود أنهما لا يبكيان على الكفار الظالمين .

(٣) المقصود بأنهم الكفار .

(٤) قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده حدثنا أحمد بن إسحاق البصرى حدثنا مكى بن إبراهيم حدثنا موسى ابن عبيده حدثنى يزيد الرقاشى حدثنى انس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : (الحديث) ورواه ابن أبى حاتم من حديث موسى بن عبيدة وهو الزيدى .

(٥) قال ابن جرير حدثنى يحيى بن طلحة حدثنا عيسى بن يونس عن صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد الحضرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحديث) .

فى السماء منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله فإذا مات المؤمن أغلق بابه من السماء الذى كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه ففقده بكى عليه وإذا فقده مصلاه من الأرض التى كان يصلى فيها ويذكر الله عز وجل فيها بكت عليه ، وإن قوم فرعون لم تكن لهم فى الأرض آثار صالحة ولم يكن يصعد إلي الله عز وجل منهم خير فلم تبك عليهم السماء والأرض . (١)

كيف لا تبكى الأرض على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ! لم لا تبكى السماء على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوى كدوى النحل ! .

(... إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ...) (٢) .

روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الذين يذكرون الله من جلال الله من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله يتعاطفن حول العرش لهم دوى كدوى النحل يذكرنى بصاحبهن ألا يحب أحدكم أن لايزال له عند الله شئ يذكر به (٣) .

روى ابن أبى حاتم عن جعفر بن محمد قال سمعت أبى يقول : نظر رسول الله صلي الله عليه وسلم إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبى صلى الله عليه وسلم :

(يا ملك الموت أرفق بصاحبى فإنه مؤمن) فقال ملك الموت : يامحمد طب نفساً وقر عيناً فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن مافى الأرض بيت مدر ولا شعر فى بر

---

(١) قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا طلق بن غشام عن زائدة عن منصور عن منهال عن سعيد بن جبير قال أتى ابن عباس ..وروى العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما نحو هذا .

(٢) فاطر : جزء من آيه ١٠ .

(٣) قال الإمام أحمد حدثنا ابن ثمير حدثنا موسى يعني ابن أبي مسلم الطحان عن عون بن عبدالله عن أبيه أو عن أخيه عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسو ل الله صلى الله عليه وسلم (الحديث) وهكذا رواه ابن ماجه عن أبى بشر بكر بن خلف عن يحيى بن سعيد القطان عن موسى بن أبى مسلم الطحان عن عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن أبيه أو عن أخيه عن النعمان بن بشير رضى الله عنه به .

وبحر إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى إنى أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يامحمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ماقدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها (١) .

يولد ويعيش على وجه الأرض .. يشق طريقه فى الحياة .. يشقه بإرادته واختياره .. يسعى .. يشقى ويتعب .. يقطع رحلة حياته فى كدح وعناء ... ليعود إلى بارئه فى النهاية .. ليسأله ويحاسبه ،، فيحصد ثمرة مجهوده وكده فى الدنيا .. ويستقر إما فى النعيم أو فى الجحيم .

فلا تبحث أيها الإنسان عن الراحة والسعادة والنعيم الحقيقى الدائم على وجه الأرض .. بل انفذ ببصيرتك إلي ماهو أبعد وأعمق .. وابحث عنهم فى العالم الآخر .. فى عالم الخلود .

فالدنيا مزيج من الراحة والتعب .. السعادة والشقاء .. النعيم والجحيم .. أما النعيم الحقيقى الخالص فلا وجود له إلا فى الجنة .

(١) روى ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن أبى يحيى المغربى حدثنا عمر بن سمرة عن جعفر بن محمد قال سمعت أبى يقول نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك الموت (الحديث)   بيت مدر : بيت بنى من طين بيت شعر : خيام نسجت من شعر كما تنسج من صوف .. يتلقى الإنسان قبس من نور الله .. يستقبل فيوضاته سبحانه وتعالى .

(ووجدوا ماعملوا حاضرا)

كتابك يوم الحساب

(... ووجدوا ماعملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) (١).. (أحصاه الله ونسوه والله على كل شئ شهيد) (٢) .

اجر يا ابن آدم .. اتعب واشق .. اخرج واله .. عش كما تشاء .. مسكين يابن آدم ! إنك ميت .. أحبب من تحب فسوف تفارقه .. امتلك ماتريد فإنه للتراب .. ولن يصاحبك إلا عملك .. ستجده حاضراً فى كتابك يوم الحساب .. حاضراً أمامك بالصوت والصورة والحركة ! شاهداً لك أو عليك .. لا تتعجب يا ابن آدم .. فقد تجد جريمتك التى ارتكبتها فى الخفاء ماثلة أمام عينيك ... شاهدة عليك .. وقد تجد عملك الصالح الذى قمت به سراً حاضراً أمامك .. شاهداً لك .. سترى وتسمع كل قول أو فعل بإذن الله ... وكأنك تشاهد شريط فيديو لفيلم سينمائى أنت بطله! فتعيش حياتك الدنيا منذ مولدك حتى مماتك مرة أخرى .. ستعيشها كاملة يوم الحساب بإذن الله . فتشتاط غضباً أو تطير فرحاً .

لا تتعجب فلعلك تتساءل ماهذا الإعجاز الرهيب ؟ ! ماهذه الكتب ؟ !

كيف تم تسجيلها علينا ونحن فى غفلة نيام ؟ !

اهدأ يا ابن آدم ... دعك من تساؤلاتك الحائرة وهيا معى نفكر : هل من الممكن أن تكون كتب الأعمال مجرد كتب مروءة كتبتها الملائكة ... بالورقة والقلم ؟ !

لا ياعزيزى .. لا أعتقد أنها مجرد كتب تستطيع إنكار مافيها .. بل لابد وأن تكون كتبا قوية تعتبر بذاتها برهاناً قاطعاً ... كتبا تكتبها وتسجلها علينا الملائكة بشكل آخر .. بكيفية مختلفة لا نستطيع إدراكها فى حياتنا الدنيا .

يكاد عقلى ينفجر ! ألست كذلك ! دعنا من الغيبيات .. فلا يستطيع مخلوق فى الوجود أن يقتبس من العلم الأزلى إلا مايسمح به العليم الوهاب جل جلاله ! ولنفكر على الأرض .. فى رحلة الإنسان إلى عالم الدنيا .

---

(١) الكهف - جزء من آية ٤٩ .

(٢) المجادلة - جزء من آية ٦ .

خلق الإنسان .. وراح يسبح فى فضاء العلم والمعرفة .. راح ينهل من علم الله الأزلى .. لكنه سبحانه وتعالى لم يكشف عما يشاء من علمه إلا وقتما يشاء ولايزال لعلم الله أسرار لم تنكشف بعد .. ورغم ذلك فقد راح الكائن البشرى يلهث وراء الحقيقة .. فأصاب مرة وأخطأ أخرى حتى صار مستحيل الأمس واقعا اليوم .. ومن يدرى ! قد يصير مستحيل اليوم واقعاً فى الغد .

تمكن المخلوق البشرى من اختراع الإذاعة والتليفزيون .. فقام بتسجيل أحداث وأناس واستطاع استحضار تلك الأحداث فى أى زمان .،. فبقى التسجيل نسمعه ونشاهده .. وصاحبه تحت الثرى مدفون ! .

واخترع الكمبيوتر .. وقامت ثورة الإنترنيت .. إذ تمكن العقل البشرى من تسجيل الحدث لحظة وقوعه فى أى مكان على وجه الأرض ... واستطاع أن يستحضر المعلومة أو الحدث فى أى زمان ومن أى مكان من خلال شبكة الانتر نيت على شاشة كمبيوتر صماء .

وتوصل العقل البشرى إلي كيفية التقاط صور لظلال أشخاص بعد مغادرتهم المكان .. إذ يغادر الإنسان منا مكانه .. وتبقى صورته وصوته فى الهواء .... فالأصوات التى تصدر منا تحرك موجات فى الهواء .. كذلك وجودنا فى أى مكان سواء فى الضوء أو فى الظلام تصدر عنه حرارة .. نغادر المكان .. وتبقى الحرارة فى الهواء على شكل موجات .. وتمكن العقل البشرى من تصوير تلك الموجات الحرارية التى تصدر عن أى كائن .. تمكن من تصوير الأحداث التى وقعت منذ فترة قريبة .. لكنه لم يتمكن من تصوير الأحداث التى وقعت منذ زمن بعيد .

يالقدرة الله التى خلقت وأبدعت ذلك العقل البشرى !

فإن كانت تلك مجرد لمحات من قدرات البشر .. فكيف بقدرة خالق البشر ؟ !

ألا تستطيع الملائكة أن تسجل علينا أقوالنا وأفعالنا بكيفية تفوق قدراتنا ؟ ! لا تفكر يا ابن آدم فى ماهية الكتاب .. لا تشغل بالك بكيفية تسجيله

واستحضاره يوم الحساب .. فعلمه عند الله .

وحذار يا ابن آدم من كل كلمة تبدر منك .. ومن كل فعل يصدر عنك .. إنه لا يضيع سدى . واستح من الكرام الكاتبين .. فإن لديك رقيب عتيد .

(قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ، وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ماكنتم تعملون ، **هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون**) (١) .

فى الحديث القدسى : عن أبى ذر - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما روى عن ربه · تبارك وتعالى · أنه قال :

(ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا

يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم ..

يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم ..

يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم ..

يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفرونى أغفر لكم ...

يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ..

يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ..

---

(١) الجاثية - ٢٦ : ٢٩ .

جاثية : باركة على الركب لشدة الهول .

كتابها : صحائف أعمالها .

نستنسخ : تأمر الملائكة بنسخ .

يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته . مانقص ذلك مما عندى ، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . (١)

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها .

فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) .

(رواه مسلم) .

---

(١) المخيط : الإبرة .

نشر الكتب

(وإذا الصحف نشرت) (١)

يرفع اللوح المحفوظ .. يعرض على الملأ .. يبرز فى صدره بخط واضح جلى :

لا إله إلا الله وحده .. دينه الإسلام .. محمد عبده ورسوله .. فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة (٢) .

وتتجلى رحمة الله أمام الجموع الهائلة إذ كتب فى اللوح المحفوظ : (إن رحمتى تغلب غضبى) .

وإذا بمفاجأة كبرى .. فضيحة عظمى .. إلهى ! يا للخزى والعار ! إن اللوح المحفوظ يعلن أفعال كل الخلائق .. يعرضها عليهم جميعاً فى آن واحد .. ينشرها أمام الجميع .. فتتمزق الأستار .. تتساقط .. وتتكشف الأسرار .. تتعرى النفوس والخبايا .. يفتضح ما كان مستورا فى الدنيا .. يتعرى أمام حشود هائلة من خلق الله .. تحت جلاله وعرشه المرفوع فوق الجموع .. فترتفع الأعناق .. تتوجه الأبصار .. تتركز الأذهان .. وتهفو القلوب .. تهفو إلى معرفة كل شئ كان فى الوجود .. ويقرأ كل مخلوق أفعاله وأفعال غيره من خلق الله .. يقرأها بمزيج من مشاعر أحاسيس مختلفة (متضاربة ومتناقضة .. يقرأها بلهفة وتمعن .. بحياء وخجل .. بنهم شديد .. يطلع على قصص .. حكايات وروايات لكل خلق الله منذ بداية الدنيا حتى نهايتها .. تتكشف له أسرار خطيرة مذهلة لم يكن يعرفها على حقيقتها فى الدنيا .. إنه لهول جد شديد .. هول عصيب .. يقف المخلوق بلا حول ولا قوة .. وقد تجرد من كل شئ .. حتى من مكره وخداعه .. يقف المسكين تحت عرش الرحمن القهار وسط الحشد الزاخر بلا ستار .

ياله من كتاب رائع عظيم ! كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها !

---

(١) التكوير - ١٠ .

(٢) روى البغوى من طريق إسحاق بن بشر أخبرنى مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن فى صدر اللوح .... إلخ .

إن اللوح المحفوظ يمثل فضيحة عامة لكل ظالم متكبر خبيث .. ويمثل وسام شرف لكل مؤمن مجتهد مظلوم .

ويسأل الرسل والأنبياء .. تسأل الملائكة .. يسألون ولا يحاسبون .. وتتوالى أحداث يوم الحساب .. تتوالى حتى يسمع النداء .. يسمع صوت عظيم جبار .. صوت يصدر من جميع الجهات ويقول :

يا معشر الجن والإنس إنى قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع قولكم وأبصر أعمالكم فأنصتوا إلى فإنما هى أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه (١) .

وينادى على الأمم .. ينادى عليهم فى ذلك الحشد الهائل .. تدعى كل أمة باسم الرسول الذى اقتدت به .. أو باسم المنهج الذى اهتدت به .. أو باسم أى إمام اتبعته فى الدنيا .. وتنشر الصحف على كل أمة .. على كل فرد من أفرادها .

(يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً ، ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) (٢)

(وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً) (٣) .

تنشر الكتب مفتوحة على مرأى من الجميع .. تتطاير من تحت العرش (٤) ..

---

(١) من حديث الصور الطويل رواه أبو يعلى (والله أعلم) .

(٢) الاسراء - ٧١ : ٧٢

فتيلاً : قدر الخيط فى شق النواة من الجزاء .

(٣) الإسراد - ١٣

ألزمناه طائره : عمله الذى لا ينفك عنه .

حسيبا : حاسباً وعادا أو محاسباً .

(٤) ذكر أبو جعفر العقيلى من حديث نعيم بن سالم عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (الكتب تحت العرش فإذا كان يوم الموقف بعث الله ريحا فتتطاير بالأيمان والشمائل أول خط فيها : (إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) .

فتتطاير معها القلوب .. وتتطاير العقول .. يذوب الإنسان خجلاً فى وسط الزحام.. زحام الإنس والجن والملائكة .. يرجف من شدة الفضيحة فى وسط ذلك الحشد الهائل من خلق الله .. يتصبب عرقاً .. لكن هيهات .. فمن ذا الذى يذكر غيره في تلك اللحظات لايذكر فيها أحد إلا نفسه .

ذكر أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : ذكرت النار فبكيت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مايبكيك) ؟

قلت : ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟

فقال : (أما فى ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل ، وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه فى يمينه أم فى شماله أم من واء ظهره . وعند الصراط إذا وضع بين ظهرى جهنم حتى يجوز) .

وتختلف أحوال الناس عند تطاير الكتب : منهم من كان عمله صالحاً فيأخذ كتابه بيمينه .. ومنهم من كان عمله خبيثاً فيتلقاه بشماله .. أما أشقى وأتعس خلق الله وقتئذ فهو من يلتقط كتابه بشماله من وراء ظهره .

ذكر أبو بكر أحمد بن ثابت الخطيب ، عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أول من يعطى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وله شعاع كشعاع الشمس) .

فقيل له : أين يكون أبو بكر يا رسول الله ؟

قال (هيهات زفته الملائكة إلى الجنان) .

حين يتلقى الإنسان منا كتابه .. تقع عيناه على السطر الأول :

(إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) (١) ..

يتمتم الناس فى همس وذهول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ؟ !

ماذا تعنى ذلك ؟! أيحاسب الإنسان نفسه ؟ ! أم هو التحذير ؟ !

---

(١) الاسراء - ١٤ .

أو تراه تهديد ووعيد ؟ !

ويقلب صفحات الكتاب .. فإذا بالإجابة تطرح نفسها .. إذا به يشاهد شريط حياته كاملاً .. مسجلاً عليه بالصوت والصورة .. فلا يتمكن من الإنكار .. ويتساءل الناس بصوت خافت مذعور : ماهذا الكتاب ؟ !

كيف تم تسجيله علينا بهذه الدقة المتناهية ؟ ! أين كنا حينئذ ؟ !

ويقول المجرمون بحسرة وندم :

(ياويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ..) (١) ؟ !

إنه البرهان القاطع .. فالحلال بين والحرام بين .. وقد تجرد الإنسان من المكر والخداع .. زال عنه صدأ الدنيا .. فلم يعد هناك اختلاط فى المفاهيم .. بل أصبح كل شئ واضحا جليا على حقيقته .. واختلف حكم الإنسان على الموقف .. فقد عايشه فى الدنيا ثم وجده حاضراً أمامه فى الآخرة .. وهناك فرق بين تفكير الإنسان لحظة معايشته للموقف وبين رؤيته إياه من بعيد .. وبعد فترة من الزمن .. فما بال مشاهدته إياه فى العالم الآخر بعد فناء الدنيا ؟

هكذا يصير الإنسان شهيداً على نفسه يوم الحساب .. شهيداً بالحق والعدل الذى لا يستطيع أن يحيد عنه يومئذ .

كتاب المؤمن

وتتنزل رحمات الرحمن الرحيم فى ذلك اليوم العصيب .. يتناول المؤمن كتابه بيمينه .. يتابع صفحاته .. وإذا بعمله حاضراً أمام عينيه .. إنها سيئاته وحسناته التى نسى منها الكثير .. وأحصاها الله .. وتمر عليه السيئة .. فيتغير لونه .. ترعد لها فرائصه .. يوجل لها قلبه .. يزفر لها دمعه .. ويذوب حياء من الله .. يظن أنه قد هلك .. وإذا بالمفاجأة العظمى ! هاهى أطواق النجاة تحيط به ! إنها الرحمة .. الرحمة الإلهية المطلقة .. يجد المؤمن فى نهاية كتابه : هذه سيئاتك وقد غفرت لك .. وتلك حسناتك قد ضوعفت لك .

لكن كيف ؟ ! ولماذا ؟ ! إنه باب التوبة الذى فتحه الله لعباده أجمعين على مصراعيه .. لقد وعد الغفار التواب جل جلاله التائبين أن يبدل ماعملوا من سيئات قبل التوبة حسنات بعدها تضاف إلى حسناتهم .. ياله من كرم فوق أى تصور أو خيال ! لم يمح الكريم المجيب سيئات التائب فقط بل بدلها حسنات من عنده ثم أضافها إلى حسناته الأصلية ! إنه فيض من عطاء يمنحه دوماً لعباده الأبرار .

روى الطبرانى من حديث أبى المغيرة عن صفوان بن عمر عن عبدالرحمن بن جبير عن أبى فروة أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولاداجة فهل له من توبة ؟

فقال : (أسلمت ؟) قال : نعم .

قال : (فافعل الخيرات واترك السيئات فيجعلها الله لك خيرات كلها) .

قال : وغدراتى وفجراتى ؟

قال : (نعم) . فمازال يكبر حتى توارى .

(إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) (١) .

---

(١) الفرقان - ٧٠

(فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم) (١).
إن المؤمن الذى يؤتى كتابه بيمينه لايناقش الحساب ولا يدقق معه فيه .. بل يحاسب حساباً سهلاً يسيراً ..ثم ينجو ويلحق بأهله الذين سبقوه إلى الجنة مسروراً.
عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(من نوقش الحساب عذب) .
قالت : قلت : أفليس قال الله تعالى : (فسوف يحاسب حساباً يسيراً) ؟
قال : (ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض - من نوقش الحساب يوم القيامة عذب) (٢) .

وعنها كذلك قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول فى بعض صلاته : (اللهم حاسبنى حساباً يسيراً) .

فلما انصرف قلت : يارسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال : أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه . من نوقش الحساب ياعائشة يومئذ هلك) (٣) .
وفى الصحيح من حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى ، فقال :
(سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: يدنى الله العبد يوم القيامة ، فيقرره بذنوبه كلها ، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله تعالى : إنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه .
وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد :
(هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين) .
توقع المؤمن حساباً صعباً دقيقاً .. لكن بعد نجاته من ذلك الموقف العصيب بسهولة ويسر .. تملأ الفرحة جوانحه .. تحتويه سعادة غامرة .. وينطلق .. ينطلق

---

(١) المائدة - ٣٩

(٢) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

(٣) رواه الإمام أحمد - بإسناده - عن عبدالله بن الزبير عن عائشة ، وهو صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه .

بين الجموع المحتشدة وكتابه فى يمينه ينادى ويهتف بأعلى صوت .. يسمعه ويراه كافة خلق الله .. يقول ويكرر :

(.. هاؤم اقرأوا كتابية ، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) وإذا بملك ينادى : هذا فلان ابن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبد) .

ويطير .. يطير عبر الصراط هو وأمثاله من المؤمنين الذين حوسبوا حساباً يسيراً . ويلحقون بأهليهم الذين سبقوهم إلي الجنة ..

(فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه ، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه .. فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية) (١) .

---

(١) الحاقة - ١٩ : ٢٤ .

هاؤم : خذوا أو تعالوا .

كتابيه : كتابى ، والهاء للسَكت .

راضية : مرضية لا مكروهة .

قطوفها دانية : ثمارها قريبة التناول إذ تجنى .

كتاب الكافر



(وأما من أوتى كتابه بشماله ...) (١)

فقد خلا قلبه من الإيمان بالله .. وخلا من الرحمة بخلق الله .. كان جباراً عنيداً .. ظالماً متكبراً .. لم يرحم الضعفاء والمساكين .. هدم ديارا .. شرد ناسا .. قتل .. خرب .. دمر .. عذب .. صنع أهوال الدنيا فلقى أهوال الآخرة .

ويقلب صفحات كتابه .. يفاجأ بجرائمه حاضرة .. شاهدة عليه بكل دقائقها .. فترتعد فرائصه .. يعتريه ذهول رهيب .. ويذوب حسرة وندما .. لقد تجرد من كل شئ .. أمسى ضعيفاً مقهوراً .. لم يعد هناك خلاص أو مفر .. فينهار .. يجهش بالبكاء .. يصرخ وينادى .. (فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه . ياليتها كانت القاضية ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه) (٢) .

ويصدر الأمر العلوى الحازم بجلاله وقوته .. برهبته .. يصد الأمر الإلهى :

(خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه) (٣) (يهتز الوجود بأسره .. يرتعش خلق الله من هول الموقف .. يتابعون الأحداث فى صمت مذهول مذعور .. وتسرع الملائكة .. تحاصر الكافر فى لمح البصر .. تأخذه بعنف .. بقسوة تتناسب مع طبيعته .. وتقيده بالأغلال .. فيصرخ ويصيح : لا .. اتركونى أيها الزبانية .. أدركونى أيها الناس أيها الجان ألا تستطيعون إنقاذى ؟ ! يارب ! لا ملجأ لى سواك ...

إرحمنى .. خلصنى مما أنا فيه .. تبت إليك .. آمنت بك .. أشهد أنه لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك ..

---

(١) الحاقة - جزء من آيه ٢٥ .

(٢) الحاقة - جزء من آيه ٢٥ : ٢٩ . كانت القاضية : الموتة القاطعة لأمرى ولم أبعث .

ماأغنى عنى ماليه : مادفع العذاب عنى . ماليه : الذى كان لى من مال ونحوه

سلطانيه : حجتى أو تسلطى وقوتى .

(٣) الحاقة - ٣٠ : ٣٢ . فغلوه : إجعلوا الغل فى يديه وعنقه .

الجحيم صلوه : أدخلوه أو احرقوه فيها . فاسلكوه : فأدخلوه فيها ، أغمروه فيها .

أجل ! لقد آمنت بكل أنبيائك ورسلك .. ولن أغضبك بعد اليوم أبداً .. اقبل توبتى يارب العالمين .. إقبل توبتى .. (إنما التوبة على الله للذين يعلمون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً) (١) .

حسم الأمر ... فلم تكن توبته حقيقية .. بل كانت اضطرارية .. إذ لم يعد لديه متسع لارتكاب الخطايا .. ولم تعد توبته تجدى شيئاً .. لن تصلح مجتمعا ولن تفيد الحياة .. بل لم تعد نفيده هو ذاته .. فالله يعلم تماماً أنه لو عاد إلى الدنيا بلايين المرات لارتكب الذنوب نفسها ولن يقلع عنها أبدا .

وتنتشر الملائكة .. بين الصفوف .. تنتزع أمثاله من الكفرة الفجرة .. تجرهم بعنف وقهر..تقيدهم بالأغلال .. وتسلكهم فى السلاسل .. ياله من هول جد عظيم ! ياله من وضع مفزع مهين ! وضع قد يشبه وضع الدجاج فى السيخ عند شوائه .. بل وأشد أشد .. إن الكافر يتألم .. لكنه قد سكت عن الكلام .. لم يعد يتمكن حتى من الهمس .. وتنهال عليه كلمات التوبيخ والتأنيب .. التهكم والسخرية إنه العذاب الحسى .. والعذاب النفسى .. ولاتزال النداءات العلوية الرهيبة تتردد فى ساحة المنتقم الجبار .. المذل القهار جل جلاله : (خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ماكنتم به تمترون) (٢) . وضاعت كرامته .. ضاعت هيبته أمام أبنائه وآبائه وخدمه .. ضاعت كرامته أمام أهله ومعارفه .. غدا منكسراً ذليلاً أمام خلق الله أجمعين .. وينادى ملك على مسمع ومرأى من كافة خلق الله :

هذا فلان ابن فلان شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبداً ... ويلقى فى الجحيم .

---

(١) النساء - ١٧ : ١٨ .

(٢) الدخان - ٤٧ - ٥٠ . فاعتلوه : فجروه بعنف وقهر .

سواء الجحيم : وسط النار . به تمترون : به تجادلون وتمارون .

كتاب المسلم العاصى

تختلف أحوال العباد باختلاف درجات الأعمال .. من العباد من يقلب صفحات كتابه .. فيجد عمله واضحا جليا .. وعندما تمر به الحسنة يظن أنه سينجو .. لكنه يفاجأ بعبارة في نهاية الكتاب : هٰذه حسناتك وقد ردت عليك .. وهذى سيئاتك وقد ضوعفت عليك .

فيتغير لونه .. يسود وجهه ويعلوه الحزن والكآبة والقنوط .. يثور .. يتساءل فى نفسه بغيظ مكظوم .. يتساءل بهمس مذعور : كيف ؟ !

كيف تضيع حسناتى هباء وقد تعبت فى تحصيلها ؟ ! ولماذا ؟ !

لماذا تضاعف سيئاتى ؟ ! أين الرحمة ؟ ! أين العدل ؟ !

لم تتركه الرحمة .. لم يتركه العدل حائراً .. تائهاً يتخبط فى أقواله .. وتزول عنه الغشاوة بتكوينه الجديد .. يرى ويعرف مالم يستطع رؤيته ومعرفته فى الدنيا. ويلمس ظلال الرحمة الوارفة .. يستشعر ميزان العدل القائم فى ساحة الحساب .. تدركه الرحمة .. ويدركه العدل .. يجيبانه فى رحاب الحق جل جلاله : ويعرف الحقيقة .. الحقيقة المطلقة .. المجردة من أى أهواء شخصية .. إن مايحذف من حسنات الإنسان إنما هو مقابل ظلمه للغير .. تحذف الحسنات من صحيفة الظالم لتضاف إلي صحيفة المظلوم .. وتختلف درجات الحذف والإضافة تبعا لاختلاف مستويات المظالم .. فمن العباد من يرد جزء من حسناته .. ومنهم من ترد كل حسناته لتنقل إلي صحيفة المظلومين ومنهم من كان ظلمه شديداً .. متعدداً .. حتى أنه يمحى كل حسناته ويأخذ من سيئات المظلومين لتضاف إلي سيئاته .. والخلاصة أن أمر الظالم فى ذلك الموقف العظيم يصبح فى يد أصحاب المظالم ! ويلقى حساباً صعباً عسيراً !

فحذار .. حذار يا ابن آدم من ظلم الغير .. فقد تتعب .. تكد وتكدح عمراً طويلا .. تجمع حسنات لتلقى بها ربك .. ثم تضيع هباء .. تضيع فى الظلم بكافة أشكاله وأنواعه ودرجاته .. إعرف واجباتك تجاه الغير كما تعرف حقوقك .. وحذار

.. حذار مما تتصوره صغيراً .. فقد يكون عند الله كبيراً .. حذار من الغيبة والنميمة .. من الهمز واللمز .. من أخذ حقوق الغير أيا كانت .. ومن كافة تعاملاتك مع خلق الله .

فالخالق الغفار يستطيع أن يغفر الذنوب جميعا .. لكن المخلوق الضعيف قد لا يستطيع أن يغفر ذنباً واحداً .. لأنه فى أشد الحاجة إلى حسنة واحدة .

(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ،. فأما من أوتى كتابه بيمينه . فسوف يحاسب حساباً يسيراً .. وينقلب إلى أهله مسروراً ، وأما من أوتى كتابه وراء ظهره . فسوف يدعوا ثبوراً ، ويصلى سعيراً ، إنه كان فى أهله مسروراً إنه ظن أن لن يحور ، بلى إن ربه كان به بصيراً) (١) .

---

(١) الإنشقاق - ٦ : ١٥

كادح إلى ربك : جاهد فى عملك إلى لقاء ربك تعمل عملاً تلقى الله به خيراً كان أو شراً .

ينقلب إلى أهله مسروراً : يرجع إلى أهله فى الجنة .

فملاقيه : فملاق لا محالة جزاء عملك .

يدعوا ثبورا : ينادى خساراً وهلاكاً قائلاً واثبوراه .

يصلى سعيراً : يدخلها أو يقاسى حرها .

كان فى أهله مسروراً : كان فى الدنيا لا يفكر فى العواقب ولا يخاف مما أمامه .

ظن أن لن يحور : كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته ، كان يكذب بالبعث .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك فى عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك) (١)

(أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين) .

(يوم يكشف عن ساق ويدعون إلي السجود فلا يستطيعون .

خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) (٢) .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سنة - جـ ٢ صـ٢٨٥ - (من باب الرياء والسمعة) عن أبى سعد بن أبى فضالة (وكان من الصحابة) رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحديث) .

(٢) القلم - ٤١ : ٤٣ .

يكشف عن ساق : كناية عن شدة هول يوم القيامة ، فهو يوم القيامة وساعة الحسم والجد الذى يشمر فيه عن الساعد ويكشف فيه عن الساق ويشتد الكرب والضيق ، واستخدم العرب لفظ الكشف عن الساق تعبيراً عن الجد وأنه لاهزل فى هذا الموقف لأن الإنسان إذا أراد أن يعمل عملا جاداً فيه مشقة فإنه يرفع الثوب ويكشف عن ساقيه حتى لا يعيقها الثوب عن الحركة الجادة التى يتطلبها العمل ، لذلك يعبر عن المواقف الجادة بالكشف عن الساق .

وقيل الكشف عن الساق : ساق العرش ، وقيل أيضاً كشف الحجب عن أبصار العباد ، والله أعلم .

ويبقى الموحدون

يلتقى خلق الله يوم التلاق .. يلتقون ثم يتفرقون .. بل يجتمعون .

إذ ينقسم عباد الله تعالى إلى : مؤمنين .. منافقين .. مشركين وكافرين ، ولكل درجات ، يلتقى الجميع يوم الميعاد .. ثم تنفصل كل طائفه عن سائر خلق الله حيث تتجمع مع بعضها البعض .. ويشير الموقف التالى إلي المشركين ثم ينتهى بالموحدين ، عفواً ! إنه لم ينته بعد ! فلا تزال لأحداث يوم العرض بقية .. ماتزال هناك أحداث ومواقف ستذكر فى حينها إن شاء الله .. وقتما يشاء الله ؟ !

ينادى صوت فى ساحة القضاء .. يتردد بقوة بين أرجاء المكان :

لتتبع كل أمة ماكانت تعبد .

ويتمثل لكل أمة الإله الذى كانت تعبده فى الدنيا من دون الله أو مع الله ! فتسرع إليه .. تقف معه .. فيقف عبدة الشمس وراء الشمس ! وعبدة البقر مع البقر ! كذلك عبدة فرعون .. إبليس .. الأصنام .. النار .. وغيرهم .. كل يقف مع معبوده !

وتحدث المواجهة بين المشركين وشركائهم .. يسأل الشركاء الذين عبدوا دون ذنب منهم .. يسألون ولا يحاسبون .. فتصير فضيحة المشركين عامة على مرأى ومسمع من الجميع .. وتتوالى أحداث يوم الحق .. تتوالى حتى يصدر الأمر .. ويقذف المشركون وآلهتهم التى عبدت بإرادتها فى الجحيم .

ويبقى الموحدون .. يبقى كل من قال : لا إله إلا الله ، يبقى كل من قالها سواء عمل بها أو لم يعمل .. وهؤلاء منهم من أطاع الله واتبع منهجه .. ومنهم من عصاه وخالف منهجه عز وجل .. منهم من ارتكب صغائر الذنوب .. ومنهم من ارتكب الكبائر .. فمنهم من يدخل الجنة بعد الحساب .. ومنهم من يعذب فى النار بقدر ذنوبه بعد حساب عسير حتى تدركه رحمة الله وتدخله الجنة .

الخلاصة فى هؤلاء العباد أنه ليس بينهم من سيخلد فى النار .. بل سينتهون

جميعاً فى النهاية إلى الجنة .. فقد جمعتهم وحدة واحدة : وهى الإيمان بواحدانية الله سبحانه وتعالى .. فيحشرون معا .. يحشرون .. ويشهدون أهوال يوم الفصل.
(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً) (١) ..

هاهم المشركون يقادون جماعات .. جماعات .. يقذفون وآلهتهم فى نيران الجحيم .. وتعلو نداءات الويل والعذاب .. تتردد أصداء الصرخات فى أنحاء المكان .. يشتد الفزع والذعر .. يشتد الضيق والكرب .. فقد ذهب وقت الهزل .. وجاء وقت الجد والحسم وهاهم الموحدون .. الكل منتظر .. متحفز .. متلهف إلى لحظة الانتهاء من ذلك الموقف الشديد .. العصيب .. إذ تمر آلهة مزعومة .. يمر الإله تلو الآخر .. إنها الفتنة العظمى .. إنه الامتحان الصعب العسير .. فهم لم يروا الله من قبل فكيف يعرفونه ؟ !

وأخيراً ينبثق نور الهدى .. يضئ جوانح المؤمنين .. أخيراً يتجلى الملك القدوس جل جلاله للموحدين .. وتستقر السكينة فى القلوب .. فيعرفونه على الفور .

إن معرفة الله لاتحتاج إلى مشاهدة العيون .. لاتحتاج إلى دلائل مادية ملموسة .. بل إن تجلى العلى العزيز جل جلاله ولومن بعيد أو من وراء حجاب .. أو حتى مشاهدة قبس من نوره العظيم .. أو الكشف عن ساق عرشه الكريم .. أو تجليه عز وجل بأية كيفية لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى يمس شغاف القلب .. الروح .. فتهفو النفوس .. المشاعر والأحاسيس .. وتغرورق العيون بالدموع .. دموع الرهبة والخشوع ويخر المؤمنون سجداً لله رب العالمين .

عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن شئتم أنبأتكم بأول مايقول الله عز وجل للمؤمنين يوم القيامة وبأول مايقولون له) .

قالوا : نعم يا رسول الله .

---

(١) النساء - ١٦ .

قال : (فان الله تعالى يقول للمؤمنين : هل أحببتم لقائى ؟

فيقولون : نعم يارينا .

فيقول : وماحملكم على ذلك ؟

فيقولون عفوك ورحمتك ورضوانك .

فيقول : فانى قد أوجبت لكم رحمتى) (١) .

ويبقى العصاة .. يكشف عنهم الغطاء .. فتنكشف حقيقتهم على الملأ .. يبقى أهل الكبائر والذين لم يصلوا ولم يسجدوا لله وهم قادرون .. يدعون إلى السجود اليوم فلا يستطيعون .. فقد صارت ظهورهم كألواح من خشب .. كلما حاولوا السجود يقعون عكس اتجاه السجود .. يقعون على ظهورهم وكأنها طبقة واحدة لا تنحنى .. لا تنثنى .

تتتابع أحداث يوم القصاص فترى .. فقد آن الوقت الحاسم .. حان وقت الحساب

(وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب . أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب) (٢) .

صدق الله العظيم

حكى أن حاتماً الأصم ، كان تلميذاً لشقيق البلخى رحمهما الله تعالى .

قال له يوماً : منذ كم صحبتنى ؟ .

قال : منذ ثلاث وثلاثين سنة .

قال : فما تعلمت منى في هذه المدة ؟

---

(١) قال أبو داود الطيالسى ثنا عبدالله بن المبارك حدثنى يحيى بن أيوب عن عبيدالله بن زحر عن خالد بن أبى عمران عن ابن عباس عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الحديث) .

كذا فى الأصل وفى مسند الطيالسى (رجونا عفوك ورحمتك) .

(٢) الرعد - ٤٠ : ٤١ .

لامعقب لحكمه : لا راد ولا مبطل له .

قال : ثمانى مسائل !

قال شقيق : (إنا لله وإنا إليه رجعون) ذهب عمرى معك ، ولم تتعلم إلا ثمانى مسائل ! فما هى ؟ قال .

الأولى : نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيت كل واحد يحب شيئاً ، فلا يزال محبوبه معه ، فإذا ذهب إلى قبره ، فارقه محبوبه ! فجعلت الحسنات محبوبى ، فإذا دخلت قبرى ، دخل محبوبى معى .

قال : أحسنت ، فما الثانية ؟

قال :

الثانية : نظرت فى قول الله تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى (٤٠) فإن الجنة هى المأوى) . فعلمت أن قوله تعالى حق ، فأجهدت نفسى فى دفع الهوى ، حتى استقرت على طاعة الله تعالى .

الثالثة : أنى نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيت كل من معه شئ له قيمة وله عنده مقدار يحفظه ، ثم نظرت فى قول الله عز وجل :(ماعندكم ينفد وماعند الله باق) فكلما وقع لى شئ له قيمة ومقدار ، وجهته إلي الله تعالى ليبقى لى عنده .

الرابعة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال والحسب ، والشرف والنسب .

فنظرت فإذا هى لا شئ ، ثم نظرت إلى قوله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقكم) . فعمدت إلي التقوى حتى أكون عند الله كريماً .

الخامسة : نظرت إلى هذا الخلق ، فوجدت بعضهم يطعن فى بعض ، ويلعن بعضهم بعضاً ! فعلمت أن أصل ذلك كله الحسد ، فنظرت إلي قوله تعالى : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحيوة الدنيا) ...

فتركت الحسد وعدواة الخلق ، وعلمت أن الذى قسم لى كائن لابد منه .

السادسة : نظرت إلى هذا الخلق يبغى بعضهم على بعض ! ويعادى بعضهم

بعضاً ! فنظرت إلى عدوى فى الحقيقة ، فإذا هو الشيطان ، وقد قال الله تعالى : (إن الشيطن لكم عدو فاتخذوه عدوا) فعاديته وأحببت الناس أجمعين .

السابعة : نظرت إلي الخلق ، فوجدتهم يطلبون الكثرة ، ويذلون أنفسهم بسببها! ثم نظرت قوله تعالى : (ومامن من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها)

فعلمت أنى من جملة المرزوقين ، فاشتغلت بالله عز وجل ، وتركت ماسواه .

الثامنة : نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيتهم يتوكل بعضهم على بعض ! ويتوكل هذا على تجارته ، وهذا على صنعته ، وهذا على صحته ! وكل مخلوق يتوكل على مخلوق ! فرجعت إلى قوله عز وجل : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ، فتوكلت على الله تعالى .

فقال شقيق : (**وفقك الله ياحاتم ! فلقد جمعت الأموركلها**) .

(يؤتى الحكمة من يشاء ... (١)

صدق الله العظيم

---

(١) البقرة - جزء من آيه ٢٦٩ .

المـراجع

تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - المكتبة التجارية - مصر .
في ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق - بيروت - القاهرة .
المنتخب في تفسير القرآن الكريم - مشروع زايد لتحفيظ القرآن الكريم - مطابع الأهرام .
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبدالباقي .. دار الريان للتراث - دار الحديث - مصر .
كلمات القرآن - حسنين محمد مخلوف - دار المعارف - مصر .
الأحاديث القدسية - وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة القرآن والحديث - القاهرة .
فتح الباري بشرح صحيح البخاري - ابن حجر العسقلاني - دار الريان للتراث - مصر .
نهاية البداية والنهاية - ابن كثير - المكتبة القيمة - مصر .
الكامل في التاريخ - ابن الأثير - دار الكتاب العربي وبيروت .
التذكرة - القرطبي - المكتبة التوفيقية - مصر .
إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي - دار الريان للتراث - مصر .
التوهم - الحارث بن أسد المحاسبي - دراسة وتحقيق : محمد عثمان الخشتي - مكتبة القرآن - مصر .
يوم الفزع الأكبر - القرطبي - تحقيق وتعليق : محمد إبراهيم سليم - مكتبة القرآن - مصر .
مشاهد يوم القيامة - محمد متولي الشعراوي - مؤسسة أخبار اليوم - مصر .
مدارج السالكين " إياك نعبدوا وإياك نستعين " - ابن قيم الجوزية - دار الحديث - مصر .
القرآن - محاولة لفهم عصري - مصطفى محمود - دار الشروق - بيروت .
مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر عبدالقادر الرازي - دار التنوير العربي - بيروت - لبنان.
الموسوعة العلمية - مؤسسة الأهرام .
مجلة الإعجاز - العدد الأول - تصدر عن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة - مكة المكرمة .
سمير المؤمنين . في المواعظ والحكم والقصص - محمد الحجار - دار البشائر الإسلامية - بيروت - لبنان .

فهرس الكتاب

* * *

رقم الإيداع ٢٠٣٢ / ٩٩
977-220-161-5

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى — ١١٢٣١